

«... إن المذهب الكتابي أو الشرعي إما أن يكون مرحلة تطور للمذهب يتقدم به مبتدعوه ، وإما أن يكون رد فعل للمذهب ينل فيه متبعوه . فأسلوب عبد الحميد بن يحيى إنما كان الطور الأول للأسلوب العربي الضيق الموجز ، دعت إليه مقتضيات المجتمع الجديد من تشعب أطراف الدولة ، وبدؤ ثمار الحضارة ، ودنو العربية من الفارسية . وأسلوب ابن المقفع الذي ظهر في فجر الحضارة العربية كان طوره الثاني ، دعا إليه اتساع الخلافة ، وتنوع

« وآثر النابغون من خريجي المدارس المدنية الحديثة الذين وقفوا على آداب الفرنجة ، الطريقة الخلدونية على الطريقة الفاضلية ، لجريانها مع الطبع ، وملاءمتها لروح العصر ، ومشايتها للأساليب الغرب ، فظهرت مهذبة غريبة فيما كتب قاسم أمين ، وفتحي زغلول ، ولطفى السيد ، ومن جرى مجراهم . وانفرد بالأسلوب البديعي رجال دار العلوم ومن يعت بسبب إلى الأزهر ، من أمثال الشيخ حمزة فتح الله ، وتوفيق البكرى ، وحفي ناصف ، ومن هذا حذوهم . وبدت على أسلوب هؤلاء مظاهر التكلف ، فأسرفوا في المحاكاة ، وأوغلوا في الصنعة ، وتشددوا في القياس ، وتصعبوا في استعمال اللغة . كما بدت على أسلوب أولئك مظاهر التطرف ، فتجاوزوا في القواعد ، ونساعوا في اللغة ، واستخفوا

« ليس من مطلق الحق - وإن عارض بوفون وبوالو وشاتوبريان وفلوير - أن الكاتب يكفيه أن يعنى كل العناية بأسلوبه ليشق له في الأدب طريقاً يبقى على الأبد . إن الشكل عرضة للتغير والزوال بسرعة . ولا بد للعمل الكتابي قبل كل شيء أن يكون حياً ؛ ولا يمكن أن يكون حياً إلا إذا كان حقاً . والكاتب لا يظفر بالخلود إلا إذا استطاع أن يوجد مخلوقات حية »

ثم يقول بعد ذلك :

« وهل نستطيع أن نبين الكمال الفني في أسلوب هوميروس وفرجيل ونحن نقرأهما مترجمين ؟ »

ويعلق الأستاذ الزيات على هذا الرأي فيقول :
« وهذا القول ظاهر البطلان ، لأن المخلوقات الحية التي بلدها ذهن الكاتب ، لا يتسنى لها البقاء على توالي الأعقاب والأحقاب إلا بالأسلوب كما قال شاتوبريان »

« أما قوله : « وهل نستطيع أن تبين الكمال الفني في أسلوب هوميروس وفرجيل ونحن نقرأهما مترجمين ؟ » فرمى أن روائع اليونان والرومان لم تخلد على الدهر إلا بمعانيها المتكررة ووقائمه المشوقة ، وعواطفها الصادقة ، وشخصياتها الحية ، بدليل أننا نقرأها اليوم بمعانيها لا بمعانيها ، وبفكرها لا بصورها . فلو كان خلودها منوطاً بدقة الصياغة وجودة الصناعة لما عاشت بالترجمة . ثم يترتب على ذلك خطأ القول باتحاد الصور والأفكار في الأسلوب ، لأننا حين نقرأ الإلياذة مثلاً في الفرنسية أو في العربية لا نقرأ منها عين الموضوع .

« والحق الذي تؤيده الدلائل أن جمال الأسلوب وحده هو الذي ضمن الخلود لهذه الروائع ؛ فإن الثابت بالسند المتصل والخبر المتواتر أنها كانت آية عصرها في البلاغة ، ولولا ذلك ما روتها الرواة ولا ترجمتها التراجم »

ونحن نرى أن إميل زولا كان على كثير من الحق وهو يقول : « والكاتب لا يظفر بالخلود إلا إذا استطاع أن يوجد مخلوقات حية » وليس هذا القول « ظاهر البطلان » كما يرى الأستاذ الزيات ؛ كما أن تعليق الأستاذ بعد هذا صحيح ، ولا تتناقض صحته مع صحة رأى زولا في شيء . فالمخلوقات الحية التي بلدها ذهن الكاتب لا يتسنى لها البقاء إلا بالأسلوب »

بجمال الصياغة ، وهبطوا إلى مستوى العامة . وفي ذلك الوقت نشأت على أقدام عرب لبنان النازحين إلى الأمريكتين طريقة ثالثة فيها الفكرة والطرافة والحركة والتنوع ، ولكن فيها الركافة والتساهل والبخيل والمجعة . فكان من رد الفعل الذي لا بد منه لهؤلاء الطرائق الثلاث أن تنشأ طريقة رابعة تأخذ من محاسنها وتخلو من مساوئها فترتضيها الأذواق جميعاً . تلك كانت طريقة إحياء الأسلوب العربي الخالص مكمل النقص بما فات من صور البيان ، لانتقاط أهله عن مسيرة التمدن الفكري الحديث . استبانت هذه الطريقة في نثر المنفلوطي ، كما استبانت في شعر البارودي . ثم نهجها الكتاب الموهوبون المطبوعون فتميزت بالركة والدقة والسلامة والرصانة والقصد . ثم نبئت طائفة من الكتاب جمعوا بين ثقافة الشرع القديم وثقافة الغرب الجديد ، فبلغوا بالنثر الفني منزلة لم يبلغها في عصر من عصوره . فالأسلوب الذي كتب به المنفلوطي والبشرى والرافعي ، ويكتب به العقاد وطه حسين والملازني ، هو ثمرة التطور الحديث في الأدب والعلم والفن والحضارة . وهو وإن اختلف بين الكتاب في القوة والضعف ، والعمق والضحولة ، والدقة والتجوز ، والتركز والانتشار ، يشترك في الصفات الجوهرية للغة وهي الصحة والبقاء والرونة ، وفي الخصائص الأصلية للبلاغة وهي الأصالة والوجازة والتلاؤم

لقد استطردت في الاقتباس من هذا الفصل القيم ، لأنني ممجب بتصوير هذا التطور والتسلسل في ذلك الحيز الضيق يمثل هذه الصناعة ؛ ولأنني أريد أن أدعو وزارة المعارف للانتفاع بهذا الفصل خاصة - إن لم يكن بالكتاب كله - في مدارسها ومعاهدها بدل تلك الفصول القاصرة البائسة التي يدرسها طلاب المدارس الثانوية !!

والآن وقد استعرضت وناقشت الأسس العامة في كتاب « دفاع عن البلاغة » يعنى لي أن أناقش بعض الموضوعات الفرعية التي جاءت هنا وهناك في الكتاب

يناقش المؤلف رأياً لإميل زولا في البلاغة ، واستعراض هذه المناقشة مفيد في بيان رأى المؤلف وزيادة إيضاحه .

قال إميل زولا :

كانت فيها بفضل النزاع والصراع في سبيل الحياة والفنية والمجد والمرأة أشد ما تكون تماما واضطرابا وقوة . فلما قتل الترف الرجولة ، وأذل العجز النفوس ، زهقت روح الفن ، وزهبت بلاغة الأسلوب ، وأصبح أدب الأدب سخفا وزيفا وثثرة » وجاء في ص ١٢٣ :

« إن الأدب البليغ كامن في البطل على أي صورة كان . فهو إن أنتجه برّذ فيه ، وإن لم ينتجه شجع عليه . لذلك ازدهر الأدب في ظلال أغسطس وبركليس والرشد وسيف الدولة . وما دام كبراًؤنا لم يخلقهم الله من الأبطال ولا من عباقرة الرجال ، فهبات أن ينتجوا الأدب أو يفهموه أو يحبوه أو يعصده أو يقدموا أهله . وسيظل هذا النور الضئيل من الأدب القوي الحر محصوراً في ظلام العمى والجهل ، حتى تقوى الأمة فينتشر ، وينبع فيها القادة فيزدهر . وسيعيش رجاله القلال المخلصون متكفين في المكاتب اعتكاف النساك في الصوامع ، يمثلونه على بصر الطبيعة ، ويشدون على سجع الزمن ، حتى تقوى دولة الحق والجمال ، فيجلسوا في الصدر وعشوا في المقدمة »

إن الذي يقرره الأستاذ عن الصلة بين فحولة الأدب وفحولة الأمة أو الفرد صحيح ؛ ولكنني لا أوافقه في تشاؤمه من العصر لأنه لم يوجد فيه بعد أغسطس وبركليس والرشد وسيف الدولة . إن الأدب لم يعد اليوم في حاجة إلى أمير يرعاه أو كبير يشجعه . لقد انتهى عهد الأمراء والكبراء . والعصر عصر الشعوب والأفراد . والأمة المربية الناهضة اليوم بمجموعها عوض عن أمراء الإقطاع في عهد سيف الدولة . فللأدب العالي أن يزهر اليوم مستقلاً بنفسه ، وللأدباء اليوم أن يسيروا في الأرض غير ممتدين على ذراع أمير أو كبير .

وما نظرت يوماً إلى الأدب في نفسي وإلى أي أمير أو وزير أو كبير إلا وجدتني أكبر وأشد قوة ، وإلا وجدت هذا الأمير أو الوزير أو الكبير في حاجة إلى رعايتي قبل أن أكون في حاجة إلى رعايته ! وهذه هي الدعوة التي يحسن أن نهتف بها للأدب والأدباء ليترفع بعض من لا يترفع منهم ، عن الزلنى للأمراء والوزراء والكبراء ^(١) سير قطب

(١) فصل من كتاب (كتب وشخصيات) يصدر قريباً

ولكنها يجب أن تكون « حية » ليحتفظ الأسلوب لها بالحياة وإلا عجز عن منحها الحياة ! وكذلك نحتاج إلى شيء من التحفظ في تعليق الأستاذ على خلود روائع هوميروس وفرجيل ؛ فليس الأسلوب « وحده » هو الذي ضمن لها الخلود ، فلا بد من عنصر آخر حي مع الأسلوب ، كما اتفقنا من قبل ، الأستاذ وأنا ، على هذا الأصل الكبير (في أول مقال)

ويستلزم الأستاذ في تعليقه فيقرر في شأن الترجمة رأياً صحيحاً نرجو أن ينتفع به من يتصدون لترجمة روائع الأدب العالمي ؛ ذلك حين يقول في ص ٧٢ :

« والترجمة الصحيحة لا تنقل أفكار الكاتب أو الشاعر وحدها عن الأصل ؛ إنما تنقل مع ذلك إثراق روحه ، وسحر إلهامه ، ولطف شعوره ، ونمط تفكيره ، وخصائص أسلوبه . فلما أن ترجمنا ضعيف المربية من تراجم المحاكم حديثه نفسه أن يمرض لأحدى روائع شكسبير فنقلها نقلاً لفظياً بأسلوبه الذي يترجم به عروض الأحوال ، أو أصول الأحكام ، فهل تقول إذا استطعت أن تقرأ ما كتب إنك قرأت شكسبير ؟ أم ترى أنك قرأت ألفاظاً كالنظام المروقة المبعثرة ، لا تمثل من أي حيوان معنى من معانيه ، ولا صورة من صورته ؟ ... الخ » وهذا دستور جيد للترجمة . وأشهد أني أقرأ في هذه الأيام مترجمات لا أدري إن كانت على رأي الباحثين ، إن كان صنع إنس لجن ، أم صنع جن لإنس ! فلعل من يتصدون للترجمة ينتفعون بهذا الدستور القويم !

وأخيراً نقف أمام لفظة طيبة تترن فحولة الفن بفحولة الأمة عامة وفحولة البطل منها خاصة ؛ وهي لفظة صادقة ولكننا لا ننبهها هنا لمجرد الصدق ، بل للتوجيه أيضاً :

جاء في ص ١٢٢ :

« وأذن بين عصر وعصر في الأدب ، أو بين أديب وأديب في الأسلوب ، تر الفرق بينهما إذا حللته لا يخرج عن قوة الرجولة في هذا وضعها في ذلك . فعصر الجاهلية عند العرب واليونان ، وعصر الفتوح عند المسلمين والرومان ، وعهد الفرومية عند الفرنسيين والطلليان ، كانت أزهى عصور البلاغة . لأن الرجولة